

الدفاع المقدّس



محاور الموضوع

الهدف:

١. الدفاع من الأمور الفطرية عند الإنسان.
٢. مفهوم الجهاد الدفاعي وضرورته.
٣. وجوب الاستعداد للدفاع وكيفية
٤. تنوع أساليب الدفاع ووسائله.

تصدير:

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ «للجنة باب يقال له: باب المجاهدين، يمشون إليه فإذا هو مفتوح وهم متقلّدون بسيفهم، والجمع في الموقف والملائكة ترحب بهم»^(١).

(١) وسائل الشريعة، ١١/ ٥ الباب الأول من أبواب جهاد العدو، حديث ٢.

١ - فطرية الدفاع عن النفس:

يُعتبر الدفاع عن النفس وما يتعلّق بها من الأمور الفطرية المركّزة في طبيعة الإنسان، وقد حكم العقل بحسنه وضرورته، وأقرّه الشرع وأمر المكلفين به، ورغب بالثواب على فعله، وتوعّد بالعقاب على تركه، وذلك لما له من أهمية قصوى في سعادة الإنسان ونهوض الأمم واستقرار المجتمعات.

بل إن الحيوانات مفطورة على ذلك ومجهزة بأجهزة الدفاع، فكما أودع الله تعالى في الإنسان شهوة الغذاء لحفظ البدن، كذلك أودع فيه قوّة الغضب أيضاً لينبعث قهراً إلى الدفاع عن نفسه وما يتعلّق به من المال والعرض ونحوه. فالدفاع في نظام الطبيعة أمر طبيعي ضروري لا محالة، وكما يحتاج الفرد إلى الدفاع عن منافعه ومصالحه، فكذلك الأمة والمجتمع.

٢ - وجوب الدفاع عن البلاد الإسلامية:

يعدّ وجوب الدفاع عن المسلمين والبلاد الإسلامية من ضروريات الفقه الإسلامي، بل يمكن القول بأنّ الدفاع عن النفس، والمال، والعرض، والوطن، والأرض، والشرف، والأمة،

والاستقلال، والسيادة... مقولة مقدّسة وممدوحة لله، يتفق عليها البشر كافّة، فلم يحتكر الإسلام أمر الدفاع والمقاومة أمام المعتدين.

ولقد اعتبر القرآن الكريم الحياة البشرية، وديمومة العقائد الدينية والأماكن المقدّسة رهناً لحسّ الدفاع الفطري عند بني البشر، فقال الله تعالى: ﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يَقْتُلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾^(٣٩) الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِن دِينِهِمْ يَفْعَلْ حَقَّ الْإِلَٰهِ أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَنَدَّتْ صَرْعُهُمْ وَيَبِيعُ وَاصْلَاحٌ وَمَسْجِدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَئِنَّكُمْ لَفَنَدْتُمْ لَنَصْرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ^(٤٠).

فلقد منح الله تعالى في هذه الآية إذناً بالحرب والجهاد لأولئك الذين مورست عليهم مظاهر الظلم والجور، وتقيد الروايات بأنّ شأن نزول الآية كان إخراج المسلمين من مدينتهم (مكة) وديارهم، ومصادرة أموالهم من جانب المشركين، ما يعني أنّ مفهوم المظلوم في الآية شامل لكل من يخرج من بلده ويعتدى على ممتلكاته، وعليه فإنّ محاربة العدو الغازي والمحتل حق مشروع للمظلومين.

(١) الحج، ٣٩-٤٠.

٣ - ما هو الجهاد الدفاعي:

هو أحد أقسام الجهاد - كما ذهب أغلب الفقهاء - ويراد به قتال من دهم المسلمين من الكفار والمشركين وغيرهم من الأعداء، للدفاع عن حوزة الإسلام وأراضي المسلمين ونفوسهم وأعراضهم وأموالهم وثقافتهم وعناصر قوتهم...

ولا يعتبر في الجهاد الدفاعي إذن الإمام عليه السلام، بل يجب مطلقاً، فالدفاع واجب بضرورة من الفطرة والعقل والشرع، وهو من أوجب الواجبات على جميع المسلمين في قبال هجوم الأجنبي والكفار والتسلط على بلاد المسلمين وشؤونهم.

نظرة الإمام الخميني قدس سره إلى الدفاع:

لقد كرّر الإمام الخميني قدس سره وفي مناسبات مختلفة ضرورة الدفاع ضد أعداء الإسلام والمسلمين، ففي عام ١٩٨٧ وفي كلمة بجمع من أعضاء شوري حزب الله - لبنان - قال قدس سره:

«لقد اجتمع الشياطين برمتهم يريدون وقف تنامي الإسلام، وعلينا أن نعي بأن من الضروري أن نبقي على استعداد تام بكل قواننا وحتى آخر شخص منا، ونجاهد في سبيل الله، إن الدفاع عن أعراض المسلمين وبلادهم أمر لازم، وعلينا أن نجهز أنفسنا للأهداف الإلهية والدفاع عن المسلمين، ولا سيما في هذه الأوضاع التي هب فيها أبناء فلسطين الإسلامية ولبنان- يعني حزب الله- والبلاد المغتصبة يقدمون أرواحهم ودماءهم صارخين (يا للمسلمين) ويبدون شهامة عظيمة في وجه السفاكين، إن علينا أن نعين هؤلاء ونبين للناس أمرهم»^(١).

وقد وضع قَزْرَبُوفُ في تحرير الوسيلة في كتاب الأمر بالمعروف فضلاً تحت عنوان «الدفاع»، ذكر فيه ما يمكن أن يتعرض له المسلمون والبلاد الإسلامية من أشكال الهجوم العسكري، والاقتصادي، والسياسي، والثقافي، وحدد كيفية مواجهتها بمختلف أنواع المواجهة والمقاومة والتصدي.

وأهم هذه الأحكام كما وردت في تحرير الوسيلة هي:

- الدفاع عن بلاد المسلمين: لو غشي بلاد المسلمين أو ثغورها عدو يخشى منه على بيضة الإسلام ومجتمعهم يجب عليهم الدفاع عنها بأي وسيلة ممكنة من بدل الأموال والنفوس، ولا يشترط ذلك بحضور الإمام عليه السلام وإذنه ولا إذن نائبه الخاص أو العام، فيجب الدفاع على كل مكلف بأية وسيلة بلا قيد وشرط.

- الدفاع عند الخوف من الاستيلاء السياسي والاقتصادي: فلو خيف على زيادة الاستيلاء على بلاد المسلمين وتوسعة ذلك وأخذ بلادهم أو أسرهم وجب الدفاع بأية وسيلة ممكنة.

وكذا لو خيف على حوزة الإسلام من الاستيلاء السياسي والاقتصادي المنجر إلى أسرهم السياسي والاقتصادي ووهن الإسلام والمسلمين وضعفهم يجب الدفاع

بالوسائل المشابهة والمقاومات المنفية، كترك شراء أمتعتهم، وترك استعمالها، وترك المراودة والمعاملة معهم مطلقاً.

- الدفاع خوفاً من الاستعمار: لو كان في المراودات التجارية وغيرها مخافة على حوزة الإسلام وبلاد المسلمين من استيلاء الأجانب عليها سياسياً أو غيرها الموجب لاستعمارهم أو استعمار بلادهم ولو معنوياً يجب على كافة المسلمين التجنب عنها، وتحرم تلك المراودات.

ما هو واجب المسلمين تجاه مقدساتهم:

تتشترك الشرائع السماوية في أصولها ومبانيها، وتتفق على قداسة هذه الأصول وحرمتها ووجوب الدفاع عنها، وقد أجمع فقهاء الإسلام بالإجماع على وجوب الدفاع عن بيضة الإسلام، بل إن فلسفة تشريع الجهاد في الشريعة الإسلامية قائمة على مبدأ الدفاع عن الشريعة وحفظ مقدساتها وكيانها من كل ما يهدده بالخطر أو التشويه ونحوه، ولهذا:

- يجب على المسلمين أنفسهم المحافظة على كل مقدساتهم بالقول والعمل الدؤوب والدائم، وعدم الإساءة إليها من خلال احترام مقدسات الآخرين وخصوصياتهم.

- يجب مواجهة كل من يمس المقدسات الإسلامية أيأ كان موقعه أو الجهة التي ينتمي إليها ضمن الضوابط الشرعية.

- يجب تنويع وسائل المواجهة والردع، من ثقافية، إعلامية، سياسية، قانونية، إدارية، اقتصادية، إلى حد الجهاد والشهادة.

- يجب تربية مجتمعاتنا على احترام المقدسات، والسعي الدائم لنقل هذه الثقافة إلى الآخرين.

القوة المعنوية لحضور القادة في سوح الجهاد:

إن أهل الإيمان الكامل هم أشجع الناس وأكملهم شجاعة هو نبينهم محمد عليه السلام، وأتمتهم عليه السلام. وقد عبر الإمام علي

عليه السلام عن شجاعة رسول الله صلى الله عليه وآله وإقدامه بقوله: «لقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله صلى الله عليه وآله وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشد الناس يومئذ بأساً»^(٢). وقال عليه السلام: «كنا إذا حمي التباس ولقي القوم القوم اتقينا برسول الله صلى الله عليه وآله فلا يكون أحد أدنى إلى القوم منه»^(٣).

ولذا يجب أن لا يغيب عن بال أحد ما لحضور القادة في الميدان مع المجاهدين من الأثر الكبير على المعركة والمجاهدين معاً، ومجريات الأحداث ونتائج المعركة شهادة كانت أو انتصاراً، وما للقيادة الشخصية لرسول الله صلى الله عليه وآله للمعارك، ولوجوده الشخصي في ميدان الحرب من دلالات تشريعية وتربوية وروحية عميقة، رسخت عبر التاريخ في قلوب المجاهدين والمقاومين، وأصبحت عنصراً فاعلاً في كل الانتصارات، ومن هذه المدرسة تخرج القادة الشهداء والمجاهدون في المقاومة الإسلامية في لبنان، فكانت قوة المقاومة وثباتها، وأصبح دم الشهداء عنصراً حاسماً في النصر.

وهذا ما شاهدناه في مجاهدي المقاومة الإسلامية في لبنان حيث جسدت أقدس المعارك من خلال مواجهتها للعدوان الإسرائيلي والحرب التكفيرية على المقاومة، و كان السلاح الأقوى في هذه الحرب الإيمان والإرادة والثبات والتوكل على الله تعالى والطاعة له سبحانه، فالمجاهدون بحق كانوا رجال الله، وقد تولاهم الله بعنايته ورحمته وتوفيقه وتسديده، وقادهم السيد الملهم أعاد إلى الأذهان صوت محمد صلى الله عليه وآله بقيادته الإلهية الحكيمة، وشجاعة علي عليه السلام في خيبر، ولهذا أعلن باطمئنان وثوق انتهاء زمن الهزائم وولادة زمن الانتصارات. قال الله تعالى: ﴿وَلَنَنْصُرَنَّكَ اللَّهُ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾^(٤).